﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يوسف: 70]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ الإيواء، الشّروعُ في أسباب الإبقاء، مِن قصّة يوسف الغرّاء

لمّا أخبر النّظمُ الجليل عن دخولهم إلى البلد، وأخبر عن دخولهم لحاجتهم إلى يوسف ﷺ، وأنّه آوى إليه شقيقَه بنيامين، وقالوا له: هذا أخونا الذي أمرتنا به قد أحضرناه، أخبر هنا أنّه قد ملأ لهم أوعيتَهم كما أرادوا[1]، وشرع في بيان طريقة أخذ يوسف لأخيه وإبقائه معه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَهَّزَهُم﴾: فعلٌ ماضٍ جَذْرُهُ (جهز)، وهو أَصْلٌ يدلّ على شَيْءٍ يُعْتَقَدُ ويُحْوَى نَحْوِ الجَهازِ، وهو مَتاعُ البَيْتِ، وجَهَّزْتُ فُلانًا: تَكَلَّفْتُ جَهازَ سَفَرِهِ[2]، وكذلك جَهاز العَروس والميِّت، وهو ما يَحتاجُ إليهِ في وجْهِه[3]، وكسر جيم (جهاز) لغة قليلة[4]، وتجَهَّزْتُ لأمرِ كذا، أي: تهيَّأْتُ له[5]. و﴿جَهَّزَهُم﴾ هنا بمعنى: هيَّأَ لهم طَلَبَهُم مِنَ الكيل، وقضى حاجتَهم[6].

2) ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾: مصدرٌ جَذْرُ مادَّتِه: (سقي)، أَصْلٌ يدلّ على إِشْراب الشَّيْءِ الماءَ وما أَشْبَهَهُ، تَقُولُ: سَقَيْتُهُ بِيَدِي أَسْقِيهِ سَقْيًا، وأَسْقَيْتُهُ، إذا جَعَلْتَ لَهُ سِقْيًا. والسَّقْيُ: المَصْدَرُ، والسِّقايَةُ: الصُّواعُ، وهُوَ الَّذِي كانَ يَشْرَبُ فِيهِ المَلِكُ[7]، والسِّقايةُ والصُّواعُ شيءٌ واحدٌ[8]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/167 - 168.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهز).
(3) الخليل، العين: (جهز).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (جهز).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (جهز).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/171.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سقى).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صوع).

وتُطلقُ السِّقايةُ على كلِّ إناءٍ يُسْقَى به[1]، والسِّقاية هنا: الإناء الذي كان يشربُ بهِ مَلِكُ مِصْرَ[2].

3) ﴿رَحْلِ﴾: مِنَ الجَذْر اللّغويّ: (رحل)، وهو أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على مُضِيٍّ في سَفَرٍ. يُقالُ: رَحَلَ يَرْحَلُ رِحْلَةً، وجَمَلٌ رَحِيلٌ: ذُو رِحْلَةٍ، إذا كانَ قَوِيًّا على الرِّحْلَةِ، والرِّحْلَةُ: الارْتِحالُ. فَأَمّا الرَّحْلُ في قولك: هذا رَحْلُ الرَّجُلِ، لِمَنْزِلِهِ ومَأْواهُ، فهو مِنْ هَذا، لِأَنَّ ذلك إنَّما يُقالُ في السَّفَرِ لِأَسْبابِهِ الَّتي إذا سافَرَ كانَتْ مَعَهُ، يَرْتَحِلُ بها وإلَيْها عِنْدَ النُّزُولِ. هَذا هُوَ الأَصْلُ، ثُمَّ قِيلَ لِمَأْوَى الرَّجُلِ في حَضَرِهِ: هو رَحْلُهُ[3]. والرَّحْلُ: ما يُوْضَعُ على البعير للرُّكوب، ثُمَّ يُعَبَّرُ بِهِ تارةً عنِ البعيرِ، وتارةً عمَّا يُجْلَسُ عليه في المَنْزِلِ، وجَمْعُه: رِحالٌ[4].

4) ﴿أَذَّنَ﴾، ﴿مُؤَذِّنٌ﴾: مِنَ الجذر اللّغويّ: (أذن)، وهو أصل يدلّ على العلم والإعلام[5]، فَبِالأُذُنِ يَقَعُ عِلْمُ كُلِّ مَسْمُوعٍ، وتَقُولُ العَرَبُ: قَدْ أَذِنْتُ بِهَذا الأَمْرِ، أَيْ: عَلِمْتُ. وآذَنَنِي فُلانٌ: أَعْلَمَنِي، ومِنَ البابِ الأَذانُ، وهو اسْمُ التَّأْذِينِ، والمؤذِّنُ: كُلُّ مَنْ يُعْلِمُ بِشَيءٍ نِداءً[6]، ومعنى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾: نادَى مُنادٍ[7].

5) ﴿ٱلْعِيرُ﴾: أصله اللّغويّ يَدُلُّ عَلَى نُتُوِّ الشَّيْءِ وارْتِفاعِهِ[8]، فالعَيْرُ: هُوَ العَظْمُ النّاتِئُ وسْطَ الكَتِفِ، وعَيَّرَ النَّصْلَ: حَرَّفَ في وسَطِهِ كَأَنَّهُ شَظِيَّةٌ[9]. والعِيْرُ: إبلٌ تحْمِلُ المِيْرَةَ والتِّجارة، لا تكونُ عِيْرًا إلّا كذلكَ، وهي القافلة[10]، وهي هنا: الإبلُ التي يُحملُ عليها، والمرادُ: أصحابُ الإبل[11].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لَمَّا حَمَّل يوسفُ ﷺ إبلَ إخوتِه بالطَّعامِ، فكَّر بطريقةٍ لِيُبْقِيَ أَخاهُ مَعَه في مِصْرَ، فخبَّأ

(1) ابن سيده، المحكم: (سقى).
(2) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 7/2173.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحل).
(4) الرّاغب، المفردات: (رحل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(6) الرّاغب، المفردات: (أذن).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أذن).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عير).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عير).
(10) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن سيده، المحكم: (عير).
(11) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/120، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 7/2172.

في رحالهم إناء الملك الذي يشرب فيه[1]، ودسَّهُ في وِعاءِ أَخيهِ الشَّقيقِ دُونَ عِلْمِهم؛ حُجَّةً وذريعةً إلى إبقائِه معه، فلمَّا ارتحلوا عائدينَ إلى أَهلهم نادى منادٍ في إثرهم: يا أصحابَ الإبلِ المُحَمَّلةِ بالمِيرةِ، إنَّكم لسارقونَ[2]. وإنَّما قيل لهم: (سارقون) وهم لم يسرقوا؛ لأنَّ المناديَ لم يكن يعلم بما صنع يوسفُ ﷺ[3]. ويُستَفادُ مِنْ هذه الآيةِ جوازُ الحِيلَةِ الَّتي يُتَوصَّل بها لإحْقَاقِ الحَقِّ، بِشَرْطِ عَدَمِ الإِضْرارِ بِالغَيْرِ[4].

بيان مخطّط يوسف ﷺ، بوضع السّقاية في الرّحل كي يأخذَ أخاه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطف بالفاء:

عَطفَ الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ بالفاء الدّالّة على السّبب؛ لبيان أنّ التّجهيز وما وقع بعدَه مِن جَعْل السّقايةِ في رحل أخيه، كان بسبب ما وقع مِنَ المقاولة بينَ يوسفَ وأخيه، وكان مِن ضِمنها وضعُ السّقايةِ في رَحْله، وإسنادُ السَّرقة إليه؛ حرصًا منهما على عدم المفارقة[5]. كما أنّ فيه إشارةً إلى التّعقيب وسُرعة التّنفيذ.

الشّروع بتجهيزهم مُسَبَّبٌ عن اتّفاق خفيٍّ، دُبّر في غفلة منهم

علّة العطف بحرف (الفاء):

عطف النّظمُ الكريم الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بالفاء دونَ الواو؛ لأنّها مبنيّة على السّبب، وعطف قولَه: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: 59]؛ وذلك لأنّه لم يتقدّم ذكر سبب هناك[6]، فكان قد جهّزهم في المرّة الأولى "ليتعرّف أخبارَهم في

انتفاء السّبب يُرجّح العطفَ بالواو، جريًا على المألوف في استعمال الحروف

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/27.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/171 - 172، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/203، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 244.
(3) مكّي القيسيّ، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 5/3602.
(4) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 244.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/397.
(6) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/382.

طول المدّة مِن حيثُ لا يشعرون، ولذلك لم يعطف بالفاء، وأسرع في تجهيزهم في هذه المرّة قصدًا إلى انفراده بأخيه، مِن غير رقيب بالحيلة التي دَبّرها، فلذلك أتت الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾ أي: أعْجَلَ جَهّازٍ"[1].

سرّ التّعبير بـ (لمّا):

وقت التّجهيز ووقت جعل السّقاية فيه، متزامنان في نفس الآن

عبّر النّظمُ الكريم بالظّرف (لمّا) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾، وهو ظرف زمان بمعنى حين، مُتضمّن معنى الشّرط، مبنيٌّ في محلّ نصب، متعلّق بـ ﴿جَعَلَ﴾[2]. والفائدة مِن ذلك: ربطُ حَدَثين في وقت واحد، فإنّ وقتَ جَعْلِ السّقاية في الجهاز كان حين التّجهيز به، والفائدةُ مِنَ الإخبار بذلك: بيانُ اللّطائف الخفيّة لإبقاء يوسفَ على أخيه، والمعبَّر عنها في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾.

نُكْتَةُ تضعيفِ ﴿جَهَّزَهُم﴾:

تضعيف الفعل، أسلوب للتّعبير عن كثرته وشِدّته

عبّر النّظمُ الجليل بالفعل المضعَّف (جهّز)، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾؛ للدّلالة على حمل الجهاز والمتاع، وأنَّه كان كثيرًا وفيرًا وافيًا، كما يدلُّ له قولُه: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ [يوسف: 59]. فالجَهَاز: ما يُعَدّ مِن متاع وغيره، والتَّجهيز: حملُ ذلك[3]، فدلّ على تحميل الجَهاز، وذلك لما في التّضعيف مِن مبالغة وقُوّة في الدّلالة، تقتضيها عمليّةُ التّجهيز ورفعِ المتاع على العير، وما فيه مِن كُلْفَة، كما أنّ ذلك يُفيد أنّه قد أحسنَ جَهازَهم[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/168.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/15.
(3) الرّاغب، المفردات: (جهز).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/168.

براعة الجناس الاشتقاقيّ:

الاهتمام بشأن الجهاز، جعلَ تجميلَ السّياق بتكرار جَذْره مفيدًا

أورد النّظم الكريم لفظين في جملة واحدة مِن جَذْر واحد، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾، على طريقة الجناس الاشتقاقيّ؛ فـ (جهّز) و(جَهاز) كلاهما مِنَ الجذر (جَهَزَ)، وفائدة ذلك: تأكيدُ شأنِ الجهاز والتّجهيز، ولَفْتُ عنايةِ السّامع بإيفاء يوسفَ عليه السلام لهم ما يبتغونه، كما أنّ فيه تمهيدًا وتحضيرًا لما سيقع في الجَهَاز مِن شأن السّرقة التي تكون سببًا في إبقاء يوسفَ عليه السلام على أخيه مَعَه.

دلالة استعمال لفظ﴿جَهَّزَهُم﴾:

إيثار اللّفظ الأعمّ، أبلغ في بيان شمول التّجهيز

آثر النّظم البليغ التّعبير بالجَهاز دون الرَّحل والمتاع، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾؛ لسعة دلالة الجَهاز، فهو يشمَل المتاعَ وغيرَه، فالجَهَاز هو ما يُعَدّ مِن متاع وغيره[1]، فهو يتضمّن متاعَ السّفر الّذي للطّريق، ويشملُ بضاعتَهم، فعَبّر بالجَهاز للدّلالة على أنّه أوفى لهم مآربَهم، بتزويدهم بالميرة.

دلالة نسبةِ الجَهاز إليهم:

مِنَ الإكرام الإيفاءُ بالتّجهيز، على وَفْق ما يريد السّائل

أضاف النّظم الجليل لفظَ الجَهاز إلى ضميرهم، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ للنّصّ على أنّه الجَهاز الذي ابتَغَوه وأرادوه غيرَ منقوص[2]، فهو جَهازُهم المعيّن لهم، الخاصُّ بهم. فالإضافة إلى ضميرهم بيّنت أنّه جَهازهم الذي أرادوه، وبذلك خالف سائر الأجهزة. وبذلك يندفع ما قد يُفْهَم مِن إطلاق القول بتمييز جَهازهم عن جَهاز غيرِهم، مِن أنّه ميَّزهم بزيادة في الكَيل عمَّن سواهم، "لأنَّ معاملته عليه السلام معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم

(1) الرّاغب، المفردات: (جهز).
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3843.

في مُراعاة مَواجبِ العدل"[1]، بل إنَّه أعطاهم ما يُلبِّي حاجتَهم وطُلْبَتَهم، كما أنّه يُوفِّي الكيلَ لجميع الممتارين على السَّواء.

إيثار لفظ ﴿جَعَلَ﴾:

الجعل أنسب لتُهمة السّرقة، وأوفى بالدّلالة المقصودة

في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ أُوثِرَ الفعلُ ﴿جَعَلَ﴾ دون (وضع)؛ للدّلالة على المبالغة والتَّكلُّف في جَعْله، فهو صَيّره هناك، وكَوّنَه ودبَّر له، وذلك دليلٌ على شِدّة الإخفاء؛ حتَّى لا يَلْحَظُوه، وليتناسبَ مع إرادة نسبةِ السّرقة إليهم، فلو وُضِعَ الصُّوَاعُ وضعًا لاحتمل أنّه كائن هناك سَهْوًا، ولا يَدلّ على أنّه مسروق، فجاء التّعبيرُ بالجَعْل لبيان أنّه جُعِلَ بحيث يكون مِنَ المتاع، فيكونَ ألصَقَ وأنسبَ معَ السّرقة في الدّلالة على القَصْديّة.

سرُّ تعريف ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾:

مقتضى حال السّقاية، يستجلب صورةً معهودةً لها في الذّهن

عرّف النّظم الكريم لفظَ السّقاية، في قوله جلّ شأنه: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾، بالألف واللّام، الدّالّةِ على العَهْد الذِّهنيّ، فمِنَ المعروف أنّ مجالسَ الرّؤساءِ والمترفين، لا تخلو مِن مثلها[2].

بلاغة المجاز العقليّ:

يوسفُ أمرَ بالجَعْل ولم يباشره بنفسه، على عادة أصحاب السّلطان

جاء في النّظم الكريم إسناد الفعل ﴿جَعَلَ﴾ إلى يوسف ﷺ، في قوله جلّ شأنه: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾، على طريقة المجاز العقليّ، فهو لم يُباشر ذلك الفعلَ بيده، بل "أمر مَنْ جعلَها؛ إذِ الغالبُ أنّه لا يَجْلِس في مجلس الطّعام، ولا يجول إليه؛ لئلّا يُفْطَن إليه"[3]، فهو مِن حيثُ كونُه ملكًا، لا يُتَصَوَّر منه ذلك، بل أصدر أمرًا لفتيانه، أو غيرِهم أنْ يجعلها في رَحْلِهم[4]. لكنّه يدلّ في الوقت ذاته على مزيد اعتنائه ﷺ بهذا الأمر، وشِدّة مراقبته له.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/288.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/28.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/397.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/302.

دلالة العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

بـينَ الـتّـأذيـن والجعل فُسْحَةٌ مِـنَ الـزّمـان، اقتضتْها عناصرُ القصّة

آثر النّظم القرآنيُّ العطفَ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ وقتَ التّأذين ليس وقتَ الجعلِ، بل بينَهما مُهْلَةٌ، فكان التّأذينُ بعد انطلاقهم وإمعانِهم في السّير[1]، فـ ﴿ثُمَّ﴾ "تقتضي مهلةً بينَ جَعْل السّقايةِ والتّأذين، فرويَ أنّه لمّا فصلتِ العيرُ بأوقارها، وخرجوا مِن مصر أُدركوا، وقيل لهم ذلك"[2]، أي: "أنّهم ارتحلوا وأمهلَهم يوسفُ حتّى انطلقوا، ثمّ أمَرَ بهم فأُدْرِكوا وحُبِسوا، ثمّ قيل لهم ذلك"[3].

دلالة فعل ﴿أَذَّنَ﴾:

تنبيه المخاطبِ إلى أمر خطير، يقتضي التّكرارَ، للإعلام والإنذار

عبّر جليل النّظم بصيغة التّفعيل، تعبيرًا عن ندائهم في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾؛ للدّلالة على تكرار النّداء، فالتّأذين يعني النّداءَ والتّصويتَ لإعلام السّامع مع تكرار ذلك[4]، فلمّا "بُحِث عنِ السّقاية، فتبيّن أنّها غير موجودة، وأنّها في رحال القوم، انطلق حُرّاس القافلةِ مُنادِينَ، وهذا معنى ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾، أي: أعلمَ مُعْلِمٌ"[5]، فنِداؤهم إيّاهم كان بتصويت مُكَرّر؛ لإعلامهم بالمقول الشّنيع، وهو نسبة السّرقة إليهم، وهو كَدَأب الّذين ينشدون المفقودَ، حيثُ يُكَرِّرون ذِكْرَه في كلّ زمان ومكان[6].

وجه الفرق بيْن ﴿أَذَّنَ﴾، و(آذن):

تـكـرار الـنّـداء والإعلام، أنسبُ في إعـلام أحـدٍ بجُرمه

استعمل النّظم الجليل الفعل ﴿أَذَّنَ﴾ دون (آذن) في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾؛ لأنّ الفعل ﴿أَذَّنَ﴾ دالٌّ على إعلامٍ بعد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/169.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/303.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/490.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/486، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/28.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3843.
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/20.

إعلام؛ لأنّ (فعّل) يُوجِب تكريرَ الفعل[1]، وتكرارُ إعلامِ المخاطبِ ونِدائِه بكونه سارقًا أبلغُ في تهويل الحَدَث مِن إعلامه مَرّة واحدة، التي يدلّ عليها الفعلُ (آذن).

سرّ حذفِ حرفِ النّداء:

حذفَ النّظم الكريم حرفَ النّداء مِنَ المنادَى في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾؛ للدّلالة على أنّهم كانوا في غاية القُرْب منهم[2]؛ وإنّما حُذِف حرفُ النّداء للتّعجيل بالنّداء، وإبلاغ المخاطب بمضمون الخطاب؛ لأنّ مقصودَ المُنادِي إبلاغُهم بأنّهم علموا بشأن السّرقة، وهم في حالة خروج مِنَ البلاد، فكان المطلوبُ سُرعةَ التّبليغِ، ودِقّةَ بيانِ المضمون.

حـــذفُ حـــرفِ الـنّـداءِ يُسرّع إيصالَ مضمونِ الخطاب

سرّ المجيء بـ (أيّ) وتأنيثها:

دخل حرفُ النّداء على (أيّ) مع تأنيثها في قوله جلّ شأنه: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾؛ لأنّ العير مؤنّث، فجِيء بـ (أيّ) التي يُتوصَّلُ مِن خلالها إلى نداء المؤنّث المعرّف باللّام[3]، فالتّأنيث على تأويل أنّ المنادى هو الجماعة؛ لأنّ الرّكابَ في العير هم الأهمّ، وهم المقصودون بالنّداء[4].

المقصود بالنّداء الجماعةُ رُكّابُ العِير

نُكْتَةُ إيثارِ: ﴿ٱلْعِيرُ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير بـ ﴿ٱلْعِيرُ﴾ على (القافلة)، و(الإبل)، في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، و(العِير): هي الإبلُ التي عليها الأحمال؛ سمّيت بذلك لأنّها تعير، أي: تذهب وتجيء، أو هي القافلة مِنَ الحمير، فلمّا كَثُر استعمالُها عُمِّمَ، فقيل لكلّ قافلة: عير، فكلّ ما سِير عليه مِنَ الإبل والحمير

العِـير أشـمـلُ في الـدّلالـة على مضمون القافلة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/486.
(2) السّمين، الدّر المصون: 6/525، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/169.
(3) السّمين، الدّر المصون: 6/525.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/28.

والبِغال صَحّ أن يقال له: عِير[1]، فأُوثِرَ اللّفظُ لدلالته على الدّوابّ مع حمولتها، فهو اسمٌ يدلّ على الحَمُولة مِنَ الإبل والحمير مع ركّابها وما عليها مِنَ الأحمال، فهو اسم لمجموع هذه الثّلاثة[2].

بلاغة الإيجاز بالحذف:

الخطاب يُراد به الرّكّابُ، ولا يُراد به الدّوابّ

أوجز النّظمُ البليغ التّركيبَ بحذف المضاف في قوله جلّ شأنه: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾؛ إذ إنّ خطابَ العير ومناداتَها، إنّما يُراد به أصحابُها؛ ولذلك جاء في آخر الخطاب قولُه: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، فَجَمْعُ الضّميرِ لمراعاة المضاف المحذوف، ولم يقل: (إنّكِ لسارقة) بإفراد الضّمير، كما قال جلّ شأنه: ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: 82]، وقد يُراد بالعِير القافلةُ كلُّها أو الرِّفقةُ، فالخطابُ ليس مقصودًا به الدّوابُّ، بل المجموعةُ كلُّها، وعندئذٍ لا يكون مِن مجاز الحَذْف[3]، بل مِنَ المجاز المرسل، كما سيأتي.

بلاغة المجاز المرسل:

من فصيح البيان، أن يُطلَق اللّفظُ ويُرادُ مجاورُه

أوقع النّظم الكريم النّداءَ على العِير، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، والمراد مِنَ العِير راكبُوها أو أصحابُها، على طريقة المجاز المرسل، والعلاقة فيه المجاورةُ؛ إذِ العِير وأصحابُها مترافقان متجاوران[4].

بلاغة جمع المؤكّدات في جملة الفاصلة:

مَظِنّة إنكارِ المخاطَب للخبر تقتضي إيرادَه مؤكّدًا، فلا ينكر

أورد النّظم الكريم الجملة الّتي هي مقول المُنادي: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ مؤكَّدَة بحرف التّأكيد (إنّ)، واللّام المزحلقة، وكون الجملة اسميّةً دالّةً على ثبوت المعنى وتأكيده؛ فجاء التّأكيدُ "لما

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/490، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/486.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/281.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/303.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/409، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/393، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3843، محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/32.

لهم مِنَ الإنكار"[1]، وذلك لتنزيل الاتّهام منزلةَ الأمرِ المقطوع به؛ لأنّ الإخبار بذلك يقابِلُه إنكارُ المخاطَب، فأُورِدَ مؤكّدًا دفعًا لهذا الإنكار، كما أنّ فيه مِنَ التّفجيع البليغ أكثرَ مِنَ النّداء بذلك خاليًا مِنَ المؤكّدات.

توجيه الخطاب بضمير الجمع ﴿إِنَّكُمْ﴾:

أَسنَد بليغُ النّظم السّرقةَ إليهم جميعًا، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، وإن كان الصُّواع قد وُجِدَ في رَحْل واحد منهم؛ جريًا على ما جرت عليه عادةُ النّاسِ مِن مؤاخذة الجماعة بجُرم الواحد منهم، كما يقال: (بنو فلانٍ قتلوا فلانًا)، وإنّما القاتلُ واحدٌ منهم لا كلُّهم[2]. ويُزاد على ذلك أنّ الخطاب قيلَ قبلَ أن يجدوه في رحلِ واحدٍ منهم، فالظَّنُّ بأنّ السّارق واحدٌ ولكنّه غيرُ معيّن، وهذا يجعل التّهمةَ تعمُّ الجميعَ، فكان الخطاب بالجمع لذلك، وهم لا يريدون أنّهم كلَّهم سرّاق.

تُؤاخَذ الجماعةُ بفعل فردٍ واحد؛ باعتباره منهم، ولا ينفكّ عنهم

علّة التّعبير باسم الفاعل ﴿لَسَٰرِقُونَ﴾:

عبّر النّظم عنِ السّرقة باسم الفاعل، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾؛ للدّلالة على ثبوت صفة السّرقة فيهم؛ وذلك لأنّ مَن يقدِر على سرقة ما يُتحفَّظ عليه بشدة، فيجرؤ على سرقة خواصِّ الملكِ، مع ما لا يخفى مِن شِدّة التَّحفُّظ عليها، والاعتناء بحراستها وحمايتها من قِبَل الحرّاس والمراقبين، فإنَّه يدلّ على أنّه ضليعٌ بهذا الشّأن خبيرٌ فيه، كما يدلّ على رسوخه في هذه الصّفة.

إذا كانت صفةُ السّرقة راسخةً فيهم ثابتة، كانت في التّصوّر لازمةً لازبة

وجه إطلاق السّرقة عليهم:

أُسنِدت إليهم السّرقةُ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ وهم لم يسرقوا، وهذه النّسبة على وجه الحقيقة؛ لأنّ

عدم الإذن في حَوز المحروز، يكون أخذُه سرقةً لا تجوز

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/169.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/303، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/28.

"المنادي غيرُ عالمٍ بما دَبّره يوسفُ، وقيل: إنّ المعنى: إنَّ حالَكم حالُ السّارقين، كون الصُّواعِ صار لديكم مِن غير رضًا مِنَ الملك"[1].

لفظ (السّرقة) بيَن التّشبيه، والمجاز:

تَشَبُّهُ أخذِ ما لم يُؤذَن فيه، بفعل السّارق السّفيه

ذكر ابنُ عرفة عن الفخر أنّ "حملهم لرحل أخيهم وفيه السّقايَة إمّا تَشَبُّهٌ بفعل السّارق، وإمّا مِن تسميّة الكلّ وإرادةِ البعضِ"[2]، فيكون مجازًا مرسلًا بهذه العلاقة، فـ"هذا الخطابُ إن كان بأمر يوسف ﷺ، فلعلّه أُريدَ بالسّرقة أَخْذُهم له مِن أبيه، ودخولُ بنيامين فيه بطريق التّغليب، وإلّا فهو مِن قبل المؤذِّن، بناءً على زَعْمه، والأوّلُ هو الأظهرُ الأوفقُ للسّياق"[3]، وهو "مِن قبيل المبالغة في التّشبيه، أي: أخذتُم يوسفَ مِن أبيه، على وجه الخيانة كالسُّراق، وقد صَدَر التّعريضُ والتّوريَةُ مِنَ الأنبياء ﷺ"[4].

حَذْفُ متعلّق السّرقة:

السّرقة فعل مشينٌ، مهما كان نوع المسروق، مِنَ النّفيس أو المهين

لم يبيّن النّظم الكريم مفعولَ السّرقة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، فأطلق لفظَ السّرقة، فلم يبيّن المنادي ماذا سرقوا؛ لأنّ النّداء بصفة السّرقة يُفْصِح عن كونهم قد أثبتَ عليهم المنادي السّرقةَ على وجه التّأكيد، وهي جريمةٌ لا تتغيّر بنوع المسروق، فالوصفُ المشينُ يثبت بالفعل، لا بالنّظر لما سُرِق.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السّارق واللّصّ:

السّارق يأخذ المسروقَ خفية، واللّـصّ يأخذ المتاعَ عُنوَة

السّارق مِن (سَرَقَ)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ على أَخْذِ شَيْءٍ في خَفَاءٍ وسِتْرٍ[5]. أمّا اللِّصُّ: فهو مِن (لَصَّ) وأصلُه يَدُلُّ على مُلَازَّةٍ

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/50.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/398.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/429.
(4) حقّي، روح البيان: 4/299.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرق).

وَمُقَارَبَةٍ. وسُمِّي اللِّصُّ لصًّا لِأَنَّهُ يُلْصَقُ بِالشَّيْءِ يُرِيدُ أَخْذَهُ. وَفِعْلُهُ اللَّصُوصِيَّةُ[1]. وعليه فإنّ اللّصَ أشبَهُ بمَنِ امتهن هذا المسلكَ للكسب، كقُطّاع الطُّرُق، فيأخذون أمتعةَ النّاسِ بالقوة والإيذاء. أمّا السَّارق فهو مَن يأخذ المتاعَ خفية بلا قوّة وإيذاء. وفي الآية أطلقوا لفظ السّارق؛ لأنّ أخذَ الصُّواع كان خفية، فكان التَّعبير بالسّرقة أنسبَ، ولم يكن مناسبًا أبدًا وَسْمُهم باللُّصوصيّة؛ لأنَّ الوسمَ به يُلْمِحُ بمعرفتهم السَّابقة بهم، لما يَدُلّ عليه مِنِ امتهانِ هذا الفعلِ مسلكًا وسبيلَ تحصُّلِ الرّزق، وهذا غيرُ مرادٍ في الآية.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لصّ).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»